

الفصل الثالث عشر

قال الشيخ :

- بعد توحيد الفعل وهو مقام النكاح يأتي دور توحيد الصفة .

وهنا سألت الشيخ :

- ألاحظ ياسيدي أن ما تذكره هنا عن كشف الجسم الكلي وتوحيد الفعل

وتوحيد الصفة قد تحدثت عنه من قبل .

رماني بنظرته النفاذة وقال :

- يابني ، لقد وردت قصة موسى في كتاب الله مرات حتى أن بعض النقاد

لاحظ هذا وتكلم عنه ، فقيام الدارسون وبينوا أن القصص عن موسى كانت

تختلف كما جاءت في كتاب الله . . وفي ورورد كل قصة مغزى ، وأن المغازي

كلها تصف سبيلين سبيل النزول أو التنزيل وهو للنور الذي كان هوية محضة

فصار نوراً معاراً ثم جمعية أسماء ثم مجموعة صفات ثم أفعال ، ثم سبيل المعراج

الذي صعد بالنور المعار إلى أعلى عليين مروراً بمقامات توحيد الفعل ثم توحيد

الصفة والأسماء ووصولاً إلى كعبة النور المعار وهو حقيقة الأنبياء والأولياء عليهم

صلوات الله أجمعين ، ثم العروج أخيراً إلى مقام قاب قوسين أو أدنى . أذكر

رحلة موسى منذ أن قذفته أمه النفس الكلية في تابوت البدن وقذفت التابوت في

بحر الهيولى فالتقطته الحواس وأسلمته إلى امرأة فرعون النفس المطمئنة وعاش في كنف فرعون وهو النفس الأمانة إلى أن قتل النفس جهاداً فهرب إلى ساحل البحر الأحمر ، والحمرة دلالة على الروح ، فلقني ابنتي النبي شعيب وهما العقل العملي والعقل النظري فظل موسى يعمل سنين كادحاً حتى دفع مهر الزواج من احدهما وهي العقل النظري فصار من ثم أهلاً للنظر في الحقائق الروحانية فسار بأهله وهي العاقلة النظرية حتى إذا وصل إلى صحراء عالم الإمكان رأى نار عالم الوجود ، وهو بدء عالم الروح ، فترك العاقلة النظرية وأتى النار فكلمه الله هناك تكليماً وأمره بخلع النعيلين وهما النفس والبدن ، وعندئذ تجلى ربه لجبل الحواس فجعله دكاً ، وهذا مقام الوصول إلى قاب قوسين .

وفي مرحلة تكليم الله موسى وردت قصة أخرى لما سار مع فتاه ، وهو همته ، حتى إذا بلغا صخرة اليقين تبين لموسى أن بدنه قد اتخذ سبيله في بحر الذات الكلية سرباً ، أي كسّر الماء من قلة . . ولما تابع طريقه التقى عبد الله الصالح ، وهو الخضر ، والخضر هو الروح الكلي ، فكشف له توحيد الصفات مضافاً إلى توحيد الفعل وذلك عندما أتى عملاً حسناً وعملاً سيئاً ، فأنكر موسى هذا عليه فقال له إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبراً . .

والمكاشف في مقام توحيد الصفة ينكر بعض ما يكشف به ، إلا أن إيمانه بالنور الذي يأخذ بيده يجعله يجتاز هذه النار التي لا تبقي ولا تذر لوحدة للبشر عليها تسعة عشر من ملائكة المعقولات وموسى لم يصبر على ما فعل الخضر إلا لإيمانه به ، وهذا هو حال المكاشف . فلولا إيمانه بالنور لأنكر وخاف وهرب . إن المرور بهذا المقام هو من أشد ما يعيشه المكاشف ، فهو اجتياز وادي جهنم كما ورد عن الإمام الصادق لما سئل عما إذا ورد جهنم مثل كل الناس لقوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ فأجاب : جزناها وهي خامدة .

لقد فسر الخضر لموسى سبب إتيانه العمل الصالح والعمل الطالح فعرف موسى حينئذ الغاية من وجود الشر واطمأن قلبه . . ولكن الثمن كان غالياً . فالمتجلى ، وهو الروح الخضر ، هجر موسى بعد أن كشف له حقيقة توحيد

الصفات . وكذلك حال المكاشف لما يمر بهذا المقام ، فالله يكلمه في مقامه هذا مثلما كلم موسى ، ثم يكلمه بعد هذا كشفاً بالنام ، ويغدو كلام الله بلا صوت ولا حرف فلا يظهر إلا من وراء ستارة الأسماء ، ولهذا اشتكى أبو يزيد البسطامي من حاله هذا فقال : هو في الدنيا يخدعك بالسوق وفي الآخرة يخدعك بالسوق فليس لك إلا السوق ، والسوق الصور والصور الأسماء .

وسكت الشيخ عن الكلام وأغمض عينيه مستسلماً لراحة قصيرة ثم تابع قائلاً :

- إذن نحن الآن في مقام توحيد الصفات عروجاً ، وإليك هذه الرؤيا التي رأيتها . . رأيتني على سطح عال ومعني أشباح ناس ، وتحتي كانت كثرة من الناس يبدوون كالأشباح أيضاً برز منهم شاب قوي البنيان جعل يرميني بالحجارة ، وجعلت أتفادى هذه الحجارة ما استطعت والشاب يلاحقني بحجارته بلا هوادة . . وتعبير الرؤيا أن توحيد الفعل رجع بنا إلى الجسم الكلي الفاعل بنور ربه عن طريق قوى النفس الكلية التي هي أصله ، ولهذا رأيت في الأسفل كثرة برز منها شاب قوي ، فهذا الشاب إشارة إلى الجسم الكلي الذي هو فعل كلي لله عز وجل ، ووجودي على سطح بلوغي عالم الخيال ، وقد سبق أن عرفنا الإنسان بأنه القنطرة بين عالمي العقولات والمحسوسات . . ففي قلب الإنسان يلتقي البحرين ، هذا عذب فرات سائغ الشراب لأنه متزل من ماء رحمة الرحمن ، وذلك ملح أجاج . لأنه صاعد من بحر الهوى والعناصر . ففي قلب الإنسان التقى بحرا الوجوب والإمكان .

فالإنسان ما تميز عن الحيوان إلا بالخيال ، وبالخيال صعد من أرض المحسوسات إلى سماء العقولات . والسماء تجريد ، ولهذا فإن آدم نفي إلى أرض المحسوسات ليبدأ رحلة المعراج التي هي تجريد كامل في المقام الأول . ولولا التجريد ما ميزنا الصفات ولا الأسماء ولا استطعنا أن نميز النور المعقول من النور المحسوس وصولاً إلى نور الأنوار . وتجد أن الله حفظ قلب المؤمن من طغيان المادة وذلك بتنزيل الرسالات السماوية عليه ، وجميع هذه الرسالات مهدت السبيل لرحلة المعراج الشريفة . . فما الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ولا الزهد

والتوكل والاخلاص في السر والعلن ، ما هذه العبادات كلها إلا سبيل لحفظ القلب من أن تنطبع فيه صور شيطانية مبعدة عن النور الشريف .

والقلب كما سبق أن قلنا مرآة يابني ، والمرآة حساسة لأنها زجاج ، والزجاج شفاف . فالقلب نور ، ولهذا فإن انطباع الهيئات الظلمانية والصور المادية في هذه المرآة يورث ظلمة تحجب من ثم سطوع الأنوار الشريفة فيه .

فالشريعة طريق إلى الحقيقة ، ولا حقيقة من غير شريعة . وكيف نتصور أن يكون الإنسان فكرة عن مفهوم الحق والخير والجمال والسعادة إن لم يكن قد تهيأ لقبول أنوار هذه المفاهيم الإلهية في قلبه ؟

وما الذكر الذي حض عليه الإمام الغزالي فكان كتاب الإحياء بحق سبيل الذاكرين ، ما هذا الذكر إلا وسيلة لصرف القلب عن الانشغال بهيئات الحس والتركيز على النظر في نور الروح الخالص إلى أن يتحرك هذا النور الساكن فيتبه القلب من غفلته ويستيقظ استيقاظ أهل الكهف وتبدأ من ثم رحلة المعراج .

فالمجاهد صار في حصالته من الصور الشريفة ما هيأه لاستقبال النور . . ولكن هذه الصور هي بحد ذاتها حجاب إذا ما وقف القلب عندها ظناً منه أنها من عنده ، وما هي من عنده بل هي هبة المعية الإلهية التي لا تأخذ عينها سنة ولا نوم .

لقد وقفت النصارى عند الصور الشريفة فامتألت الأديرة بالرهبان والزهاد والعاكفون على صفات القدس مع أن المسيح عليه السلام أشار إلى ضرورة إدارة الخلد الأيسر لمن ضرب الخلد الأيمن لتوحيد الصفات جميعاً ، بياضها وسوادها ، تمهيداً لردّها إلى النور الأصيل ، وعندئذ لا يعود الزاهد زاهداً ولا المعتكف معتكفاً ، إذ ما هذه إلا الحجب النورية ، ولاحظ هذا التعبير الحجب النورية . فمن ادعى أنه زاهد بفضله خرج عن حقيقة الزهد ، ومن دخل المحراب ظاناً أنه دخله بإرادته ما دخله على الحقيقة . فلباس الرهبان مسح للنور ، ولهذا كان على الراهب تقبيل عدوه لينكشف له من خلاله الوجه الباطن

للثوب الذي يلبسه . فالثوب واحد ظاهراً وباطناً ، ويغطي العالمين النور والظلمة ، والتوحيد يقتضي خلع الثوبين الجسم والنفس أو الفعل والصفة لكي يظهر للقلب وجه الواحد الأحد عن طريق التمثيل بالهيئات .

قال الشيخ هذا ثم فتح درج الطاولة وأخرج قلماً وورقة وكتب في أعلى الورقة بسم الله الرحمن الرحيم . . ثم رسم مربعاً ورفع رأسه ناظراً إلي وقال :

- بدأنا بالتزليل وهو النور النازل أي أننا بدأنا من نقطة في زاوية المربع العليا ثم هبطنا مع هذا الضلع إلى أن وصلنا إلى الجسم الكلي الذي هو سطح وامتداد .

قلت معترضاً :

- ولكنك قلت إن الجسم الكلي كروي .

هز يده ببطء وقال :

- السطح امتداد والعين ترى سطحاً ولا ترى كرة ، إذن ضلع المربع النازل امتد إلى ضلع المربع الثاني الأفقي ؛ ثم بدأنا رحلة المعراج صعوداً من أرض النفس والعناصر فصعدنا مع ضلع المربع الثالث عروجاً في السماء حتى وصلنا إلى امتداد آخر مواز لامتداد عالم المادة وهو عالم المعقولات الذي يوازي تماماً العالم الأول . فعالم الوجوب يقوم بمواجهة عالم الإمكان ولا انفصال له عنه إلا من حيث التجريد وهذا يمثل الضلع الرابع في المربع فتم بذلك إقفال المربع الرياضي الذي هو جسم كروي .

قلت ماداً صوتي :

- نعم ؟ ماذا تقول ؟ المربع الرياضي هو جسم كروي ؟

وكعادته ضحك . . ضحك ضحكته القوية التي يمكن أن توصف بأنها ضحك روحي ، فضحكه يصدر من القلب ، وكيانه كله يشارك فيه ويعبر عنه . . كان يضحك حتى تدمع عيناه فمسحهما وقال :

- يعجبني وجهك عندما تدهش . يابني ما في الوجود إلا الكرة . . إنها كرة الرحمن إن أمكن القول . ضلع المربع الأول بدء من تكشف النور اللطيف ، فهذا المربع نور لطيف ونور كثيف ، وكل نور إشعاعه كروي لأن الكرة بلا زوايا فهي أكثر الأشكال امتلاء وهي ممتلئة بالذر دون ثغرات . . إذن . .

ورسم من ثم قوس بدء من أول ضلع المربع الأول وانتهى عند نهايته ، وتابع قائلاً :

- وقلنا إن الضلع الثاني الذي هو عالم المادة ، وقد قلنا إنها - أي المادة - امتداد وتسطح ولكن المعلوم في علم الفلك أن عالم الكواكب والأفلاك كروي ، وما في الكون إلا كرة .

قال هذا وتابع رسم قوس ثان يبدأ حيث ينتهي القوس الأول وينتهي عند نهاية رأس الضلع الثاني من المربع . . ثم قال :

- وقلنا إن الضلع الثالث هو رحلة المعراج وهي رحلة إلى سماء المعقولات ، والرحلة عروج في أفق الذات والأفق قوس .

ورسم من ثم قوساً ثالثاً بدأ حيث انتهى القوس الثاني وانتهى عند نهاية رأس ضلع المربع الثالث ، ثم قال :

- والآن بقي أمامنا هذا الضلع الأخير وعلينا أن نرسمه لكي يكمل رسم الدائرة كلها .

ورسم القوس الأخير فكمملت بالفعل الدائرة التي كان المربع داخلها .
وتأمل الشكل محدثاً نفسي :

- ما المنطق الذي استخدمه حتى رسم القوس الأخير . . وهل قوله (علينا أن نرسمه لكي يكمل رسم الدائرة) حجة لكي يرسمه بالفعل ؟

كنت أتأمل الشكل لكنني شعرت فجأة أنه ، هو ، كان يتأملني . . عيناه النفاذتان تسلطان علي أشعثهما ، ثم قال :

- الضلع الرابع يمثل المعقول أو الكلي أو الأسم . ولقد سبق وسألتك ما إذا كنت كريماً فأجبت بالإيجاب ، ثم سألتك عما إذا عشت تناقضاً قبل أن تهب وتعطي فأجبت بالإيجاب أيضاً . . إذن نحن أمام تناقض شطر الكلي شطرين شطراً إيجابياً وشطراً سلبياً ، أو كما قلنا الأسم الكريم يقتضي اسم عكس الكريم ، والاسمان ذاتيان ، أي جزئيان وعمّان أي يعمان الكثرة جميعاً . فمن خلال معرفة النفس يمكن الحكم على المجموع . والمهم أن الأسم انشطر ، وقلنا الانشطار ضروري لإخراج قوى الاسم . قال سبحانه : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ ، والخصاصة الفقر والحاجة ، ويمكن القول إن الفقر والحاجة يضغطان على الاسم قبل بَتّ الموضوع فيكونان انشطاراً للاسم ، وانشطاره أظهر قيمته ، ولهذا ضربه الله مثلاً على عطاء المؤمنين الفقراء .

قال هذا ورسم بين الضلع الرابع وقوس الدائرة الذي يعلوه ضلعين قسماً القوس جزئين ، وقال :

- وأنت ترى أن تسلسل تحقق الفعل من الصفة وتناقض الصفة يخلق انشطاراً جديداً في الاسم كاسم الكريم مثلاً ، وأنت عندما أعطيت شعرت بشيء من الندم على أنك أعطيت وخرجت عن شيء ذي قيمة كنت تملكه فصرت لا تملكه .

قلت مبتسماً :

- هذا شعور صحيح ياسيدي .

- حسناً ، إذن انشطار الاسم انشطر من جديد ، فلقد كنت في الاسم الإيجابي ثم انتقلت إلى الاسم السليبي ثم عدت إلى الاسم الإيجابي ثم قفزت إلى الاسم السليبي . . وخلال هذا التناقض كان الفعل يتم . والمهم أن الانشطار الثاني تم من جديد .

قال هذا ورسم ثانية ضلعين جديدين بين الضلع الثاني من الإنشطار الأول والقوس الذي يعلوه ، وكانت المساحة قد ضاقت أكثر . وتابع قائلاً :

- فإذا تبعنا هذا الإنشطار اللانهائي لسير العملية الفكرية ، وهو واقع يعيشه القلب في سيولة لا نهائية . . وإذا انتقلنا من الجزئي إلى الكثرة التي هي سيرورة من المتناقضات الأسمائية المتحققة عبر الأفعال ، وإذا لاحظنا أن الفكر لا يمكن إيقاف تدفقه ، فهو أبدي ، وجدنا أن عملية الإنشطار تظل تشطر ضلع المربع إلى ما لا نهاية حتى يتحد أخيراً بقوس الدائرة الذي يعلوه .

قال هذا وهو يتأملني ، وأنا أحاول جهدي أن أستوعب ما قاله إلى أن

سألني :

- أليس ما ذكرته صحيحاً ؟

قلت بعد تأمل :

- أجل ياسيدي .

ضرب بيده الشكل الذي كان على الورق أمامه ونهض واقفاً قائلاً .

- إذن لقد كملت دائرة الرحمن ظاهراً وباطناً . . الظاهر هو الجسم الكلي

والباطن هو الفكر .

قلت متسائلاً :

- هل الفكر هو العقل الكلي ؟

- بل هو الفكر الجزئي الذي هو صورة من الفكر الكلي ، وكلاهما صورة

الرحمن .

فكرت قليلاً في ما قاله وقلت :

- هل تعني أن فكري أنا (وأشرت إلى رأسي) هو فكر الرحمن .

- طبعاً ألم أثبت لك ذلك ؟

- أثبتته بماذا ؟

- بكونه سيولة متدفقة مؤلفة من تناقضات الأسماء والأسماء لله .

- ولكن كيف عرفت أن تناقض الفكر هو تناقض الأسماء الإلهية ؟

- ألم أحدثك عن انكشاف سر الاسمين الهادي المضل وكونها اسماً واحداً ؟

- ولكنك قلت إن وراء الكشف سرّاً .

- طبعاً وراءه سر .

- وقلت إنك لا تستطيع كشف هذا السر .

- لا ، ولكنني أذكر لك رؤيا تشير إليه . رأيت نفسي في غرفة أتشاجر مع شقيق لي عُرف بسوء الطوية والشر واسمه علاء . . ولقد طردته من الغرفة ، فلما خرجت إلى غرفة ثانية وجدت شقيقاً آخر لي اسمه عبد الرؤوف جعل يعاتبني على أنني طردته من الغرفة فتعجبت وقلت له أنا طردت أخاك علاء ، فقال بل طردتني أنا وعجبت لهذا وانتهت من نومي ، وأنا من العجب في غاية . وتعبير المنام في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ، فهو سيحانه خالق الشر . ولقد أفضنا في الحديث عن هذا الموضوع من قبل ، والحكمة الكامنة في خلق الشر . والمهم أنني عندما طردت شقيقي الشرير تبين لي كشافاً بالنام أن الشر هو الإسم البعيد لله . لقد كشف هذا شقيقي الآخر عبد الرؤوف لما لامني على أنني طردته . والرؤوف إسم من أسماء الله ، والغرفة هي القلب في الرؤيا مثلما أن البيت القلب ، ومثلما أن الكعبة القلب . فخاطرا القلب إذن هما من قضاء الله وقدره وهذا هو التوحيد . فالتناقض ذاتياً كان أم موضوعياً ، فردياً أم كثرة ، هو تناقض ظاهري القصد منه تبيان الصفة والحد . . أما الحقيقة فنثبت أن وراء التناقض وحدة ، والوحدة توحيد وطالما أن خواطرك تنتهي إلى التوحيد ، وطالما أننا ميزنا منها خاطراً ملكياً وخاطراً إلهياً فالنتيجة أن خواطرك كلها إلهية وليس في القلب إلا الله . والقلب الفكر ، إذ القلب هو الذات الناطقة التي مركزها الدماغ في عُرف الصوفية وغيرهم . ففكرك إذن ليس فكرك ، هو فكر الهُوفيك على الحقيقة ، ولقد اتخذك هذا الفكر مستقراً ومستودعاً ليظهر بك ولهذا جاء في الحديث القدسي : ما وسعتني

السموات ولا الأرض ولا الجبال ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين .

فقلب العبد محل تجلي الله ونشاطه . . ونشاطه فكري ، إذ سبحانه عقل خالص قائم بذاته والعقل نور . ومن هنا تفهم معنى قولي إن الناس نيام أو هم في غفلة لأنهم لم ينتبهوا إلى جريان القضاء الإلهي وقدره فيهم أو عبرهم . فكل فكر هو مجال ظهور الهُو وظهور نشاط أسمائه . ولهذا اتسم الفكر بسيولة متدفقة مشعة كالشمس في كبد السماء ، ولهذا يجد الإنسان نفسه عاجزاً عن أن يوقف سير الفكر فيه ، أو أن يجد من نشاطه . فالفكر إشعاع نوراني به تجلى الله وظهر .

قلت للشيخ :

- ألاحظ أنك تقوم بعملية توحيد لكل ما في الوجود . . الوجود الظاهري المتمثل في المادة والوجود الباطني المتمثل في الفكر ، وتجعل الوجودين وجوداً واحداً هو وجود النور . والمهم أنك تعتمد الكشف أولاً المتمثل في الرؤى وتبني على الكشف فلسفة التوحيد . والسؤال ياسيدي ، أليس في الإمكان القيام بعملية التوحيد هذه عن طريق العقل والمنطق ؟

نظر إلي بدهشة بالغة وقال :

- عقل ومنطق ؟ مالذي دعاك للتفكير في العقل والمنطق ؟

- لأن الفلاسفة يأخذون على الصوفية عدم اعتمادهم سبل المنطق عند

البحث .

- أنت تعني هيغل .

- هيغل وغيره . أأست ترى أن هناك فجوة بين الفلسفة والصوفية

ياسيدي ؟

- يابني ، هيغل وحده حسب ما أعلم هو الوحيد الذي حاول أن يقوم بالتوحيد بين المادة والروح عن طريق المنطق . جعل الروح أساس المادة وأقام البنيان الظاهري على الروح . وأسلوبه الجدلي كله يعتمد تبيان أن العالم الظاهري هو عالم مثالي أصلاً ظهر في موضوع ، وإلى الآن أنت ترى كيف ماشى

هيغل الصوفية . . ولكن الرجل عندما مد السلم بين الروح والمادة جنح به سلمه ووقع . خذ مثلاً تحليله (هنا) الكلية وقوله هنا منزل فالحد إيجابي وهو في الوقت نفسه سلبي لأن هنا هنا انتزعت من هنا كلية وانحصرت في منزل ، ثم قال الرجل هنا منزل لم تعد هنا لأنها تحولت مثلما أن كل شيء يتحول أو يصير، ثم قال إن هنا منزل صارت هنا شجرة، فاهنا مُحلت على منزل أولاً ثم نزع من المنزل ثم مُحلت على شجرة . وفي هذا التحميل والنزع ظلت هنا هنا ولكنها صارت كلية أو أثبتت أنها كلية ، أي أثبتت أن لها وجوداً خاصاً غير وجودها المنحصر في بيت أو شجرة . ومن هنا قال هيغل إن هنا الكلية التي هي مقولة من مقولات الروح ظهرت في مادة . . ثم انتقل هيغل إلى البيت نفسه فقال إن البيت هو بيت وليس بيتاً هو بيت لأن مانراه بيت ، ولكنه عند التدقيق هو شكل له لون وحجم ويحتل مساحة وله سقف وأبواب ونوافذ . وأثبت هيغل أن كل هذه التفاصيل أساسها كلي كاللون والحجم والسقف والمساحة ، والرائي لم يعرف المنزل إلا باعتماده على معلوماته من الكليات ، ولولا معرفته بالكليات ما عرف أنه منزل . وأنت ترى أن هيغل يريد الإثبات ثانية أن المنزل الذي هو ظاهرة هو ظهور للكليات التي هي قوام الروح ، وأنتك لورفعت من المنزل ما فيه من كليات لما بقي منه سوى شكل متهافت لا يعني شيئاً ، أي لولا الكليات ما كان للمنزل أن يكون منزلاً ، فالروح أظهرت أن المنزل منزل ولولا الروح ما كان للمنزل أن يكون منزلاً . فالعالم الظاهري بهذا هو ظهور الروح إذن . لقد وحد هيغل بين المادة والروح الأمر الذي عجز عن تحقيقه فلاسفة العالم أجمعين . وبعد فماذا كانت النتيجة ؟ سل النقد والدارسين والمتخصصين في هيغل العظيم . لقد ظل هؤلاء يعملون فؤوس النقد في هذا الصرح الشامخ حتى دكوه عن آخره . لقد دحضوا كل منهج هيغل المنتقل من الكلي إلى الجزئي ومن الجزئي إلى الكلي ، وأثبتوا أن المنزل منزل حتى وإن كانت فيه صفات كلية ، كما قالوا إن هذه الكليات هي إدراك ذهني من تصور الذهن وأن لا وجود لهذه الكليات على أرض الواقع . . وقالوا أيضاً إن إدراك الكليات تم بناء على وجود الجزئيات ، وأن لولا هذه الجزئيات ما توصل العقل إلى تصور الكليات بفعل التجريد . فالظاهر الذي نسفه هيغل بأن جعله

ستاراً للروح موجود وهو المعتمد لإدراك مقولات الروح .

فالمنطق الذي اعتمده هيغل ليثبت أن ليس في العالم إلا الواحد وأن الطبيعة أصلها فكر إلهي ، وأن الطبيعة سائرة وصائرة ومتحولة مثلما أن الفكر الإلهي سائر وصائر ومتطور . . هذا المنطق كله تهافت كما تهافت تهافت التهافت الذي كتبه ابن رشد ليذكر صرح تهافت الغزالي وذلك بقوله إن الغزالي نظر في الدين نظر التحقيق في حين أن التحقيق هو بالعلوم العقلية يليق .

وتعد فلسفة كانط كلها نقداً ممتازاً لمحدودية العقل البشري . فكانط الإلهي وضع حداً بين إمكانات العقل وطبيعة الشيء في ذاته . والقفزة إلى الطبيعة التي قام بها هيغل أدت إلى وقوعه في هوة لأن الطبيعة هي من طبيعة الشيء في ذاته فهي منغلقة على نفسها ، وسرها عند ربها الخلاق القيوم .

هيغل يقول إن العقل الكوني يبدأ صغيراً وغامضاً ثم ينمو من خلال ممارساته في الطبيعة . . ولئن صح هذا على العقل الفردي إلا أنه لا يصح على العقل الكلي أو الروح . نحن قلنا إن العقل الكلي بحاجة إلى العقل الجزئي ليمارس من خلاله وبه إمكاناته ، لأنه عن طريق العقل الجزئي يمكن للعقل الكلي أن يضع إمكاناته موضع التطبيق كما يمارس ربان ماهر إمكاناته عبر قيادته السفينة وهو يكتسب من القيادة معلومات جديدة تضاف إلى معلوماته الكلية . . ولكن الربان يبقى رباناً ، والربان ليس رباناً لو لم يكن مؤهلاً لقيادة السفينة .

العقل الكلي يحوي أصلاً الكليات التي تأخذ سبيلها إلى عالم التحقق . صحيح أن الواقع يقوم ويحذف ويضيف كما سبق أن استشهدنا بآيات قرآنية عن أن الله علم في المسلمين ضعفاً فتاب عليهم فأباح لهم ملامسة النساء في ليالي رمضان ، ولكن يبقى الله هو الله في السموات وفي الأرض ويبقى أنه سبحانه خلق البعوضة وضرب مثلاً على إعجاز هذا الخلق . ووصف الغزالي خلق البعوضة في صفحات رائعة من كتابه الإحياء . . وباختصار فإن خلق البعوضة يساوي في إعجازه العالم وما فيه . ويكفي أن نتذكر أن علوم الإنسان المتمدين اليوم كلها ليست بقادرة على خلق بعوضة لا ولا على صنع جارحة من جوارح الإنسان

كاليد والرجل والقلب والأذن والعين . إنهم يتباهون بزرع القلب والكلية ولكنهم لما اضطروا إلى اختراع كلية صناعية صنعوا كلية بحجم غرفة ، أجل غرفة ، وصرحوا مع هذا بأن كثيراً من أعمال الكلية الطبيعية ما يزال مجهولاً من قبلهم . فبربك هل يقاس العلم البشري بالعلم الإلهي . . وما هو هذا النمو الذي تحدث عنه هيغل للروح المطلق وقد وصفه كما لو أن الروح المطلق رضيع في القماط لا حول له ولا طول ؟ . .

نحن نربط بينه الظاهر والباطن ، ونقول لا وجود لأحدهما دون الآخر ، ونجعل الاثنين واحداً ، ولكننا لا نغفل عن وعي حقيقة أن الله فض عظمته عبر الموجودات ومارس إمكاناته من خلال المخلوقات ، لكنه كان ولم يزل فوق الموجودات وأعظم من كل الموجودات ، وأنه الأحد الصمد الذي يصمد إليه في كل أمر .

لقد اعتمدت الصوفية أسلوبين ، الأول الكشف الذي هو بحد ذاته عقل قدسي صار فيه الإنسان والله واحداً عن طريق الوحي والتكليم ، والثاني البحث في عجائب القلب كما قال الإمام الغزالي الذي هو وسيلتنا الوحيدة للمعرفة . فمن لم يعرف نفسه لم يعرف ربه ، والنفس صورة الرحمن ، وبعملية تأمل لنشاطات النفس وتناقضها نستطيع أن نضع يدنا على نشاطات الروح الإلهي فينا . إننا لم نفقز خارجنا لنضيع في الخارج بل عكفنا على القلب المخلوق على صورة الرحمن .

لقد سبق أن قلت لك كيف أنني لما وجدت بين يدي كتاب الإحياء للغزالي استغرقتني قراءته حتى نسيت نفسي . . لماذا ؟ لأنني وجدت نفسي التي بين جنبي بين سطور كتاب الإحياء . فليس سوى القلب وسيلة للمعرفة الإلهية ، وكل محاولة للتوحيد بين شطري الوجود المادة والروح تنتهي إلى الفشل إن لم يُعتمد عالم البرزخ بين شطري هذا العالم والمتمثل في القلب وحده .

قلت :

- ولكنك ذكرت في أحاديثك الكثير عن العالم العنصري والكون الكروي

والجسم الكلي ، ولم تقتصر في بحثك على الإنسان وحده .

- أعود فأذكرك يا بني إنني أعتد الكشف أولاً وآخراً ، والكشف أثبت أن أصل العالم المادي ذر ، وأنه بذاته ذر متكثف ، وأنه قائم بالله ، بل هو لولا الله ما كان شيئاً ، إذ الذر ذره سبحانه . وإذا كنت قد تحدثت عن العالم العنصري باعتمادي الكشف فأنا لا أكون قد اعتمدت سبل المنطق لإثبات توحيد المادة والروح . أنت تلاحظ أنني أصر على أن أؤيد كل قول لي برؤيا أراها ، فدليلي وبرهاني هو الرؤيا فقط ، ورؤيا ليست منطقاً ، ولو كانت منطقاً لأفنت الناس جميعاً وظلت أعناقهم لها خاضعين . ولقد ضربت لك مثال هيغل بالذات لأن الرجل هو الذي قام وحده بمهمة توحيد المادة والروح عن طريق المنطق فباعت عمليته بالفشل الذريع .

أنا عندما انطلق من الكشف أنطلق من قاعدة إيمانية ، فلولا أنك من المسيحين المصدقين لما صدقت كلمة بما قلت ولقلت عني ما قاله أعداء الصوفية عنهم إن خيالهم خيالات مرضى مموسين . . حتى البحث في القلب وأسراره وعجائبه أنكره أعداء الصوفية عليهم وعدوه بدعة من البدع . فأنا أنطلق من الحب أولاً وآخراً . أنت تحبني فتصدقني ، ولو كنت تبغضني لما صدقتني . وكل ماقلت الصوفية لم يقنع سوى محبي الصوفية . أنا نفسي كنت أحب الصوفية وأصدق الصوفية من قبل أن أعلم شيئاً عن علوم الصوفية . كنت من الخواص ثم صرت من خواص الخواص ، ثم صرت من الذين رفعهم الله إليه وأيدهم بروح القدس . ويكفي أن تذكر أن معجزة القرآن ، وهي أعظم معجزة في عالم البيان ، لم تقنع إلا خيار الناس في الجاهلية لقوله عليه السلام : خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام . وكم من ضليع في اللغة وشاعر لم يصدق بالقرآن رغم كل ماجاء فيه من سحر البيان وروعته . والله سبحانه ضرب على ذلك مثلاً فقال : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ﴾ . فأنت ترى عدم جدوى استخدام المنطق لهداية الناس إلى الحقيقة . فالظلم ظلمات في الدنيا والآخرة ، ولو كان المنطق يهدي سواء السبيل لاهتدى الناس جميعاً إلى الحقيقة علماً أن الله لا يريد الهداية

للناس أجمعين . على مدى التاريخ ظل الناس فريقين ، مؤمنين وكافرين ، وظل العقل حجة في يد هؤلاء وفي يد هؤلاء ، وهذا ما يؤيده التاريخ نفسه بكل من خلده فيه من علماء وفلاسفة وشعراء وأدباء ومخترعين العقل نفسه أداة بيد الرحمن يجعل من يريد أن يقبل فيقبل به ويجعل من يريد أن يدبر فيدبر به ، ولهذا ترى أن طريق العقل مسدود . ويكفي أن تلقي نظرة على صروح الفلاسفة لترى مصداق قولي هذا . فكل صرح فلسفي بنيان قائم بذاته ومع هذا فأنت ترى كيف خرج تلميذ أفلاطون على أفلاطون ، وخرج ماركس تلميذ هيغل على هيغل . التلاميذ أنفسهم يصبحون ألد أعداء أساتذتهم ، وليس هذا لعلة موجودة في الأساتذة ، أو لعلة موجودة في الطلاب . فقد تكون العلة في الأستاذ لا في التلميذ ، وقد تكون في التلميذ لا في الأستاذ . . والمهم أن تظل الحقيقة محجوبة بحجب الظلمة والنور إلى أن يهدي الله إليها من يريد . فهذه الكعبة مخصصة للحجاج ، والركب كثير والحاج قليل . ولقد سافر إلى كعبة الحقيقة كثيرون مثلما طار إليها كثير من طيور العطار فما وصل إليها إلا طائر واحد وضاع الباقون في الطريق .

الطريق إلى الحقيقة محفوف بالمخاطر والأشواك ، وشرط السفر الإخلاص في السر والعلن . فالأخلاق ، لا العقل ، هي السبيل لمعرفة الحقيقة ولهذا ركزنا على القلب دون العقل ، ولهذا اشترطنا جلوس المرأة ، مرآة القلب لا مرآة العقل ، فالقلب هو الخلق ، والخلق هي كعبة الحقيقة . لقد نسف الغزالي صروح الفلاسفة لأنهم اعتمدوا العقل دون القلب ، ثم بين أن الصوفية أصحاب القلوب الصافية هم وحدهم الذين يمكن الوثوق بهم وتصديقهم ، وكان ما كان من أمر الشكف مما لم يذكره الغزالي ، ولكنه دعا إلى ظن الخبر دون السؤال عن الخبر .

أنت نفسك يا بني لم تشك في أقوالي . أسئلتك كانت للاستيضاح لا للتشكيك أو للتعتن أو للاستخفاف بما أقول . وما كاشفتك إلا بعد أن عرفتك ، ولو أنني لم أعرفك لم أكاشفك . فالدر لا يجعل إلا في أفواه المستحقين لا في أفواه الخنازير وما أكثر الخنازير ورعاة الخنازير ، وقيل لا تجعلوا الحكمة في غير أهلها

فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم .

الصوفية يدعون الناس على بصيرة ، والبصيرة غير البصر . . البصيرة الباطن والقلب . ونحن ندعو للتوحيد لأن لب ديننا هو التوحيد ، هو شعار لا إله إلا الله ، ولو تعلم ما تحت هذا الشعار من أسرار لدكدكت كما دكدك جيل موسى عند التجلي .

نحن ندعو إلى التوحيد خواصاً هم أهل لأن يكونوا موحدين ، أو من محبي التوحيد . فالمرء على دين خليله . ولقد قال الأعرابي الذي جاء رسول الله أنا لا أصلي ولا أصوم يا رسول الله ولكنني أحب الله ورسوله فقال عليه السلام المرء مع من أحب . وقال : كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة ، فقال أبو ذر : حتى وإن زنى وإن سرق ، فأجاب النبي حتى وإن زنى وإن سرق . . وكررها ثلاثاً إلى أن أضاف : رغم أنفك يا أبا ذر .

فأنت ترى عظم المحبة وأثارها . من أحب الله أحبه الله ، ولا يحب العبد الله حتى يحبه الله ، فإذا أحبه اصطفاه ، وإذا اصطفاه علمه ، وعلمه علم التوحيد ، هو معرفة سر لا إله إلا الله والسر الأعظم .

لقد ظلت الثنوية الفارسية على مدى قرون المهيمنة على عالم الفلسفة مثبتة أن في الكونين إلهين ، إله النور وإله الظلام أي أهورا مزدا وأهريمان . فهذه الفلسفة لم تستطع أن تجد حلاً لظاهرة الشر في الكون فجعلت للشر إلهاً مستقلاً ، والله سبحانه يقول : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .

ويعد أرسطو امتداداً للثنوية الفارسية وذلك بفصله بين عالم المادة وعالم الروح أو العقل . لقد جعل أرسطو العالمين متوازيين يجاور بعضهما بعضاً ، أزليين ، أبديين . فعالم المادة مؤلف من هيولى وصورة ، ولا وجود لهيولى بلا صورة ولا لصورة بلا هيولى . وذلك رداً على أفلاطون . . وقال إن نشاط العالم المادي قائم على خروج ما هو بالقوة إلى ما هو بالفعل . فبذرة شجرة البلوط ستصير شجرة بلوط بالضرورة والقوة . فبين العلة والمعلول ترابط غائي لا انفصام له ، وعلى هذا فلا حاجة لهذا العالم في خلق ولا إبداع ولا إخراج من

العدم ، فكل نشاطه قائم على تحرك قوانين ضمنية صائرة إلى علنية . فأنت ترى أن أرسطو وجودي من الطراز الأول . أما الله فهو من العجب في غاية في هذا الوجود ، فهو موجود ولكن وجوده وعدم وجوده سواء . وليس لله إلا التدبير كما شبهه ابن رشد شارح أرسطو الأكبر بحاكم مدينة ليس له من حكمها إلا التوجيه . . ثم جاء الشراح فعدلوا أرسطو أو على الأصح عدلوا إله أرسطو . لقد جعلوا إلهه علة صورة العالم فكانت النتيجة أن ردوا ثنوية أرسطو إلى توحيد ، وقالوا إن الله وهو علة معلول العالم قد انبثق عنه هذا العالم اضطراراً أو وجد بالضرورة . والشروح كلها غريبة عن مذهب أرسطو وأساسها أفلوطين الذي كتب كتاب سماه التاسوعات فترجم وجعل مؤلفه أرسطو . ولقد شارك الفارابي وابن سينا في تعديل فلسفة أرسطو إلى درجة أن أرسطو لم يعد أرسطو بل صار أرسطوطين . . ثم جاء دور ابن رشد الذي عاد فصّح صورة المعلم الأول وكشف النقاب عن حقيقة هذه الصورة من جديد .

فأنت ترى كم كانت المعركة طويلة وشديدة بين الثنوية والتوحيد الثنوية تثبت وجود آلهة في الكون ، والتوحيد يثبت أن لا إله إلا الله . لقد امتد أثر أرسطو الملحد القائل بأزلية المادة حتى زماننا هذا حيث ظهرت الوجودية الملحدة والماركسية القائلة بأزلية المادة ووجود قوانينها فيها . ويعد ابن رشد واضع حجر الأساس لنظرية تطور المادة وذلك بنفيه صفة الخلق للمادة وقوله إنه تتطور بنفسها بدءاً . من الكائنات الدنيا ، وهذا هو جوهر نظرية التطور الداروينية الحديثة . وكان ختام المسك لهذا التيار ظهور الماركسية التي قلبت ظهر المجن للهيغلية واعتمدت المادة أساس الكون وألغت وجود إله أرسطو الذي كان بالأصل لا فائدة منه ولا جدوى من وجوده .

ولقد انبرت الصوفية على مدى التاريخ للتصدي لهذا التيار ورد ما في الوجود كله إلى خالق حي قيوم لا يقوم شيء إلا به فهو الأسّ والأساس والأصل والغنى والأزل والقديم . ويتسائل الإنسان عن سبب إصرار الصوفية على نفس كل ما في العالم من ظواهر مادية وردّها إلى مصدر نوراني شعشعاني فعال لا غير . . والجواب بسيط وهو إثبات مدى قيومية الله كما قلت ومدى

فعاليه في الوجود . إننا عندما نصل إلى درجة من الإيمان اليقيني بأن لا وجود
إلا لله ، وأن لا موجود إلا وقائم بهذا الوجود ، وأن لا حركة ولا سكون إلا
للساكن المتحرك ، وأن لا استمرار للحياة إلا للمهيمن على الحياة . . . إننا عندما
نصل إلى هذا المدى من الإيمان نكون قد أصبحنا موحدين كما كان جدنا إبراهيم
الخليل عليه السلام موحداً عندما أبى أن يتخذ من الشمس أو القمر أو الكواكب
أو أصنام مظاهر الصفات أرباباً من دون الله ، وأعلن من ثم إيمانه بالأحد القيوم
لا تأخذه سنة ولا نوم وليس هو من الآفلين .